الشكور

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم : ٧] .

والاسم هو اسم « الشكور » .

الحقيقة أن تعرف أن الله خلق السموات والأرض وكفى فأنت إذاً ما عرفته ، لأن الإيمان بوجود الله يكاد يكون قاسماً مشتركاً بين الناس كلهم جميعاً يعني :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : ٢٥] .

حتى الذين عبدوا الأصنام قالوا : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣] .

إذا أقررت بوجود الله عزّ وجل ، فأنت لم ترتفع عن أي مستوى من مستويات الناس العاديين ، ولكن معرفة الله تقتضي أن تعرف أسماءه وما من معرفة لها علاقة وشيجة بحياتك الدنيا وبمآلك إلى الآخرة كمعرفة أسمائه الحسنى ، فكلما ازددت معرفة به ازددت حباً له ، وازددت استقامة على أمره ، وازددت عملاً صالحاً تتقرب إليه ، وازدادت سعادتك في الآخرة .

إذاً شيء في غاية الأهمية أن تتعرف إلى الله من خلال أسمائه الحسنى ، اسم الشكور ثابت بالقرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[فاطر : ٣٤.

وفي سورة الإسراء يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] .

مشكور : اسم مفعول ، من الشاكر ؟ هو الله عز وجل .

وفي آية ثالثة في سورة النساء يقول عز وجل :

﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] .

إذاً شكور وشاكر ومشكور ، الفعل المشكور هو فعل العبد ، والله سبحانه وتعالى شاكر وشكور ، وبعد فما تعني كلمة « شَكَرَ » في اللغة ؟

الشكور مبالغة من شكر ، ودائماً صيغ المبالغة إذا اقترنت بأسماء الله الحسنى فتعني إما عدد الشُّكر أو حجم الشُّكر ، أما حجم الشُّكر ؛ فأنت قد تعيش في الدنيا لسنوات معدودات ، سنوات قد تزيد على الستين سنة أو السبعين ، فإذا أطعته في هذه السنوات المعدودات يَهَبُك حياةً أبدية لا تنقضي ، وكلمة (أبد) هذه كلمة قد لا ننتبه إلى معناها ، وها أنا ذا أُخاطب الإخوة الرياضيين ، الذين يدرسون الرياضيات ، لو أن « واحداً » في دمشق ووضعنا أصفاراً وبين كل صفرين ميلمتر ، وتابعنا الأصفار إلى حمص إلى حماة إلى حلب إلى أنقرة إلى موسكو إلى القطب الشمالي إلى المحيط الهادي إلى

القطب الجنوبي إلى إفريقية إلى إلى. . . . حتى عادت هذه الأصفار حول الأرض إلى أن استقرت على شمال « الواحد » ، هذا الرقم كم هو ؟ هذا الرقم « واحد » في دمشق والأصفار حول الأرض ، لو وضِعَ هذا الرقم صورة لِكسر عادي ، وفي مخرج الكسر إشارة اللانهاية ، هذا الرقم يساوي صفراً في الرياضيات ، يعني : أي رقم مهما بدا لك كبيراً إذا قيسَ إلى اللانهاية فهو صفر ، فأنت إذا عِشت في الدنيا سنوات معدودات ، وفي هذه السنوات المعدودات أطعت الله عز وجل ، ونهيت نفسك عن الهوى ، وضبطت جوارحك ، وحررت دخلك ، وتعرّفت إلى الله ، وجلست في مجالس العلم ، وتلوت القرآن وفهمت القرآن ، ودعوت إلى الله ، وأنفقت من مالك ومن جاهك ومن علمك وجاء الأجل ، إذا قِستَ هذه السنوات المعدودة إلى الحياة الأبدية فأنت ما فعلت شيئاً ، فمعنى « شكور » أنه يعطيك على الشيء القليل الشيء الكثير .

أيعقل أن تدفع ربع ليرة سورية ، لتشتري بها محالَّ شارع الحمراء في دمشق على الطرفين ؟ الطوابق والمخازن والمستودعات ، والحريقة وطريق الصالحية والبحصة وحمراء بيروت ، وشارع بيكاديلي بلندن ، وشارع كذا بفرنسا ، هل من الممكن شراؤها بربع ليرة ؟ أؤكد لكم أن كل عمل الإنسان إذا قيسَ بما أعدَّ الله له من نعيمٍ مُقيم ، والله إنه أقلّ من هذه النسبة .

انظر في هذه الشركات الكبرى في العالم ، فقد سمعت عن شركة قالوا : عندها فائض هم في حيرة من توظيفه ، مليار دولار ، فائض ليس له وظيفة يوظف بها ، هناك شركات كبرى في العالم ميزانياتها

وأرباحها بِقَدَر ميزانيات مجموعة دول ، هذه الشركة هل تُشتَرى بليرة ؟ ها أنا ذا أقول ودون أن أبالغ : إن ما أعدَّه الله للمؤمن من نعيمٍ مُقيم نظير ما يُقدمه من طاعةٍ لله في الدنيا ، كالنسبة بين ما قدّم وما سيأخذ ، وهي لا تتعدى أن تكون كمن يشتري إحدى أكبر الشركات في العالم بليرة سورية .

هذا معنى « الشكور » ، صيغة مبالغة لاسم الفاعل ، عندنا « شاكر » وعندنا « شكور » صيغة المبالغة أنه يعطي اللانهاية ، يعطي الأبد .

مرةً سمعت أن بعض القضاة في بلد معين ليس لهم رواتب ، بل لديهم شيكات مفتوحة ، أي مبلغ يريده القاضي يأخذه ، لو طلب مبلغاً فلكياً يأخذه فوراً ، معنى « الشكور » إذاً ، أنه يعطي الشيء الذي لا نهاية له ، الذي لا حدود له عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : « **قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : قَالَ اللهُ : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ** . » .

[صحيح البخاري]

الحقيقة أنّ هذا الكلام نقرؤه ونردده كثيراً ، ولكن لو وقفنا عند مدلول هذه الكلمة ، كل واحد منا له دائرة مشاهدات ، فأنت مثلاً إلى أين ذهبت ؟ تقول : ذهبت إلى لبنان وإلى الأردن ، وذهبت إلى الحج ، وذهبت إلى مصر وإلى قبرص ، فقط ؟ أجل ، فقط .

وقد تجد شخصاً يعرف أمريكا ، يعرف اليابان ، يعرف روسيا يعرف إفريقية ، وشخص آخر يعرف جنوب شرقي آسيا أيضاً ، وتجد

آخر ذهب إلى أستراليا ، وغير أولئك من ذهب إلى القمر .

على كلٍّ دائرة المشاهدات إذا قيست بدائرة المسموعات لا شيء ، سمعت بالمريخ ولكن لم تذهب إليه ، وسمعت بالمشتري وسمعت بنجم القطب ، وسمعت بآلاسكا ، وسمعت بسيبيريا وسمعت بالقطب الشمالي ، دائرة المشاهدات إذا قيست بدائرة المسموعات فهي لا شيء ، أما دائرة الخواطر قد يخطر ببالك جبل طوله من هنا إلى الشمس ، هذا خاطر ، ما دام الخاطر ليس له واقع فالقضية سهلة ، قد يخطر ببالك إنسان إذا وقف على الأرض اقترب من القمر ، طوله ثلاثمئة ألف كيلو متر ، هذا خاطر .

فعندما حدثنا النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه في الحديث القدسي قال : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ، هذا معنى « الشكور » ، نظير ثلاث وستين سنة عشتها ، انقضى خمسها حتى أصبحت مكلّفاً ، يعني هذه السنوات المعدودة كل يوم خمس صلوات كلما رأت عينك امرأةً غضضت البصر عنها ، وكلما لاح لك مبلغ من شُبهة قلت معاذ الله إني أخاف الله رب العالمين ، يعني مجموعة صلوات ومجموعة أيام صمتها ، ومجموعة مواقف خِفت فيها من الله عز وجل ، فاستحققت هذا العطاء الكبير . وربنا عز وجل قال :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان : ٢٠] .

أحدهم قال لي : كنت ببلد أجنبي ودعانا ، مدير الشركة إلى قصره ، فشدهنا إذ رأينا ما يفتن العقل والنظر ، دخلنا في غابة بقيت السيارة منطلقة ربع ساعة في هذه الغابة المحيطة بقصره ، في حين

يحتاج المرء في بلدان كثيرة إلى بيت مساحته مئة متر ، يأوي إليه ، في حين أن الغابة مساحتها مئات الكيلو مترات ، غابة صنوبر وبالمنتصف قصر كبير ، بل ملك كبير ، قصر وحوله حديقة مترامية ، غابة صنوبر ، فربنا عز وجل قال : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ .

الله سمى ما أعد لك في الجنة ملكاً كبيراً ، هذا معنى « الشكور » ، شيء لا يُقدّر بثمن ، مقابل شيءٍ قليل جداً قدمته نلت به شيئاً كثيراً .

والمعنى الآخر لكلمة « شكور » هو المعنى العددي ، يعني لا يمكن أن تقدم شيئاً لله عز وجل إلا ويشكرك عليه .

حينما علم أبو لهب بميلاد النبي عليه الصلاة والسلام أعتق ثويبة ، فقيل : إنه يخفف عنه العذاب كل يوم اثنين[1] ، وأنه أعتق هذه الجارية فرحاً بميلاد النبي عليه الصلاة والسلام ، كل شيء محفوظ عند الله سبحانه ولو أنقذت نملة ، قال تعالى :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء : ١٤٧] .

قد تخدم شخصاً ، الخدمة لا يمكن أن يشكرك عليها إلا إذا

---

(١) قال ابن حجر في الفتح [٩/ ١٨٠] وذكر السهيلي أن العباس قال : لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حول في شر حال فقال : مالقيت بعدكم راحة إلا أن العذاب يخفف عني كلَّ يوم اثنين ، قال وذلك أن النبي ﷺ ولد يوم الاثنين ، وكانت ثويبة بشرت أبا لهب بمولده فأعتقها .

عرفها ، مثلاً ، كأن تزور مريضاً ، فتحمل هدية وتتوجه إليه ، في مدخل البيت أخذها منك ابنه ، ولم يبلغه ، ثم جلست عند المريض فهل يعقل أن يشكرك هذا المريض بقوله : (فضلت ، شكراً) لا . طبعاً إنه لم يدر بالهدية ، فكيف يشكر وهو لا يعلم ، لذلك ربنا عز وجل : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ فهو يعلم ، يعلم أي عمل مهما بدا صغيراً ، لو أنقذت فراشةً ، لو رحمت إنساناً ، لو أمّنت إنساناً خائفاً ، أو هدأت من روع إنسان خائف ، لو طمأنت إنساناً ، لو أطعمت إنساناً جائعاً ، كل شيءٍ محفوظ عِنْدَ الله ، فكلمة « شكور » إما لحجم « الشُّكر » وإما لعدد مرات الشُّكر ، وهي مبالغة اسم فاعل .

قال العلماء : معنى « الشكور » ، في اللغة : الشُّكر في الأصل الزيادة ، فلان شكير أي عياله صغار ، وشكير الشجر ما نبت في أصلها من القضبان الصغار ، وناقة شكيرة وشَكْرى إذا كانت ممتلئة الضرع ، وشكرت الأرض إذا كثر النبات فيها ، ودابة شكور إذا أظهرت من السِّمَن فوق ما تُعطى من العلف ، وكل نبت يكتفي بالماء القليل فهو شكور ، هذا ما ورد في كتب اللغة عن كلمة شكور .

أما الشكر في حق العباد فله طريقان ، ويمكن أن نضيف لهما طريقاً ثالثة ، شكر باللسان ، وشكر بالعمل ، ونقول : لن يكون الشكر لا باللسان ولا بالعمل إلا إذا عرفت النعمة ، أساس الشُّكر المعرفة ، إذاً أنت تعرف ثم تشكر ، لا تشكر ما لم تعرف .

فشكر العمل ، مثلاً : هناك شخص قدم لك بيتاً ، فهو إذاً قدّمَ لكَ شيئاً ثميناً ، أو كُنتَ واقعاً في ورطةٍ كبيرة فأنقذك منها ، ثم رأيت ابنه في الطريق ، فإذا قدمت لهذا الصغير قطعة حلوى فهذه الحلوى في الحقيقة شُكر لوالده ، فأنت عبّرت عن امتنانك من أبيه بإكرام ابنه ، هذا بشكل مبسط .

لذلك فالمؤمن إذا أسدى للعباد خدمات ، أو إذا رحم العباد أو أكرمهم ، طمأنهم ، أطعمهم ، أسقاهم ، كساهم ، رحمهم ، حينما تُسدي معروفاً إلى مخلوق كائناً من كان ، لِقطة ، لجروٍ صغير ، فقد ترى حيواناً قد مرض وتأخذه إلى مشفى بيطري أو إلى طبيب بيطري ، فإذا أردت الحقيقة فهذا هو عين الشُّكر ، لأنك تُعبّر عن شُكرِكَ لله عز وجل وعن امتنانك له بخدمة مخلوقاته ، وإذا أردت أن تعرف سِر العمل الصالح في الدنيا ولماذا المؤمن يعمل الأعمال الصالحة ، ليس لها تفسير إلا أنها تعبير عن شُكر العبد لله عز وجل من خلال خدمة عباده ، إذا نصحت زبائنك نصيحةً صادقة ، فهذا شُكر منك لله ، إذا رحمت الناس ، إذا عطفت عليهم ، إذا أنصفتهم ، إذا خففت من مآسيهم ، إذا مسحت جراحهم ، إذا أمنتهم من خوفهم ، إذا قدمت لهم المعونة ، إذا فعلت أي عمل صالح هو في الحقيقة تعبير عن امتنانك لله عز وجل من خلال عباده ، ومألوف عند الناس على نحوٍ واضح جداً أن تكرمَ الأب من خلال إكرام الابن ، إذا رأيت رجلاً تحبه يصحبه ابنه فيمكنك كحد أدنى أن ترحب بالابن ، كيف أنت يا عم ؟ ما اسمك ؟ بأي صف ؟ وإذا معك قطعة سُكر أعطيته إياها ، وإذا وجدت لديك قلماً ثميناً ، وهذا الإنسان له فضل عليك أعطيته

القلم ، وهذا طبيعي جداً ، وهو شكر عملي حقاً .

تُريد شيئاً يريح قلبك ، تُريد لهذا الإنسان الذي أكرمك ، أن تُعبّر عن امتنانك له ، فتلقى أمامك ابنه وتكرمه ، الله عز وجل غني عن العالمين ، يطعم ولا يُطعم ، مستحيل أن تقدم هدية إلى الله لكن ليس أمامك إلا عباده ، كلهم عباده ، حتى الكفار ، حتى الذين أنكروا وجوده هم عباده إذا أحسنت إليهم فهذا عمل خيرٍ عند الله محفوظٌ ، فإن كنت طبيباً وجاءك مريض ، والمريض تعرفه غير مؤمن بالله ولا دين له ، فهذا عبد لله أمامك يجب أن تقدم له كل شيء ، كل ما في إمكانك لأنه عبد لله .

مثل آخر في مجال الحيوان ، فإذا وجدت حيواناً يحتاج إلى أن يأكل ، فتطعمه ، نعرف أُناساً يطعمون الطيور ويشعر أحدهم بلذة عارمة وبسعادة ، فيشتري كمية من الحبوب ، التي تصلح للطيور يضعها على السطح فترى مئات الطيور تسقط على السطح وتأكل يقول : كأني أتغذى أنا ، شعور نبيل سامٍ ، هؤلاء مخلوقات لله عز وجل ، لذلك فالمؤمن وهو يقود مركبته يحرص حرصاً كبيراً على ألا يؤذي بها مخلوقاً ، فمثلاً لو قتل غنمة لقطع أصحابها عنقه ، ويقطعون عليه ؟ الطريق ، ثمنها ثمانية آلاف يغرمونه الثمن . لكن إذا قتل كلباً لا أحد يُحاسبه ، ترى في الطرقات منها عشرات مقتولة ، أما المؤمن فهو يعلم أن هذا الكلب حتى لو لم يكن ملكاً لأحد ، ولو لم يكن هناك يحاسبه عليه ، سوف يحاسبه الله عليه ، لذلك فالمؤمن يحرص حرصاً بالغاً على ألا يدعس حيواناً ، وإذا وقع منه من غير قصد يبادر إلى أداء صدقة فلعل الله سبحانه وتعالى يعفو عنه .

هذا هو الشُّكر ، فالشُّكر بالأفعال أن تعمل عملاً صالحاً مع كل مخلوق ، وأنا أؤكد أنك إن خدمت المسلمين فقط أو إن خدمت المؤمنين فقط فهذا أرقى وأجدى عند الله تعالى ، أما أن تخدم إخوانك ممن تلتقي بهم في المسجد ، فهذه نظرة ضيقة جداً ولا تُرضي الله كثيراً ، بل يجب أن تخدم الخلق عامة .

عن أبي موسى رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول :

« لن تؤمنوا حتى تراحموا قالوا : يارسول الله! كلنا رحيم قال : إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة » [رواه الطبراني] .

حدثني أخ قال : رجل مُنعَم يركب سيارته الفخمة يمشي في طريق بين مدينة ومدينة رأى شاباً راكباً دراجة أصابها خلل ، والرجل له مكانته التجارية والاجتماعية ، وقف وأصلح له الدراجة ، فكان هذا العمل سبب هداية الشاب وإيمانه ، وأصبح من أخلص إخوانه .

إذاً ، هذا هو الشُّكر ؛ الإسلام نظرته أممية ، وليست نظرته نظرة ضيقة ، هذا مسلم وذاك غير مسلم ، هذا مؤمن وذاك غير مؤمن ، هذا من إخواننا وهو من جماعتنا ، هذه كلها عنعنة جاهلية ، إذا كنت فعلاً تعرف الله فهؤلاء جميعاً عبيده .

والله الذي لا إله إلا هو ما من مخلوق ترحمه إلا شكر الله لك . . قال : بغيّ ، والبغيّ معروفة ، رأت كلباً يأكل الثرى من العطش فسقته فشكر الله لها وغفر لها ، والحديث الشريف :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ :

« بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي ، فَمَلأ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا قَالَ : « فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ » . [صحيح البخاري] .

ذات مرة رأيت في مزرعة قرب يعفور سمكاً ، صاد بعض من في المزرعة سمكاً من هذا السمك وأرادوا فوراً أن ينظفوها ، بحجة تستغرق وقتاً طويلاً لتسكن ، قلت : فما المانع أن تنتظر ولا تعذب مخلوقاً ، انتظر حتى تسكن الأسماك ، هو يريد أن يفتح البطن وهي حية ، فهذا تعذيب لبعض خلق الله ، أشاهد أحياناً بائع فراريج يذبح الفروج ويلقيه فوراً في ماء يغلي ، قبل أن يموت ، إن هذا خطأ يحاسب الله عليه ، فاحذر ، قال تعالى :

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الحج : ٣٦] .

لماذا الدين ضروري ؟ هذا مخلوق ، قدم جسمه لك ، فوق هذا المعروف تسلقه حياً بالماء المغلي ، بعد أن تذبحه وقبل أن يموت لاتضعه في البرميل الذي يغلي غلياناً ، والله كبير وشديد العقاب ، ففي الحديث الشريف :

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ » . [صحيح مسلم] .

هذا هو الشكر .

إذا عرفت الله عز وجل ورأيت فضله عليك ، فقد عرفت كيف تتعامل مع مخلوقاته أياً كانت ، اقرأ هذه الآية مثلاً :

﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

أوجدك من عدم ، عمرك الآن ثلاثون سنة ، افتح كتاباً قد طبع سنة ألف وتسعمئة وثمانيةٍ وخمسين ، فأثناء صف الحروف أين كنت أنت ؟ أكان لك وجود ؟ أكان لك ذكر ؟ أكان لك حجم ؟ أكان لك جرم ؟ أكان لك أهمية ؟ لم تكن موجوداً أصلاً ، قال تعالى :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] .

فأنعَمَ الله عليك بنعمة الوجود ، وأعطاك صورة ، قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٤] .

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ٨-١٠] .

إن العبد إذا أطاع ربه ، ثم إن الرب تعالى كافأه على طاعته ، كان ذلك شكراً للعبد ، فكيف بالجزاء الأوفى الذي سيجزي الله به عباده ، فهذا يعني أن الله شكور .

والشكر المُفسّر بالثناء ، يعني إذا عملت عملاً طيباً لك الجنة ، أنفقت من مالك لك جنة عرضها السماوات والأرض ، أنفقت من وقتك أنفقت من خبرتك من علمك ، عاونت ، أخلصت ، أتقنت عملك ، ونصحت المسلمين ، يعني قدمت الحد الأدنى ، كأن تكون

لك مهنة تتقنها ثم تعمل العمل بإتقانٍ وتأخذ أجراً معتدلاً ، فالحد الأدنى أن تنفع المسلمين بطريقة ما .

فالحد الأدنى أن تتقن عملك ، وأن تتقاضى ثمناً معتدلاً ، والحد الأعلى حدث ولا حرج ، تطعم الطعام تعين الضعيف فليس كل مصل يصلي ، إنما يتقبل الله الصلاة ممن تواضع لعظمته ، وكف شهواته عن محارمه ، ولم يصرَّ على معصيته ، وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب كل ذلك له .

حدثني أخ والقصة قديمة منذ عقدين تقريباً في أثناء أحداث لبنان قال : جئت من « الهامة » فرأيت رجلاً واقفاً في ضاحية « دُمر » أيام البرد الشديد حاملاً طفلاً صغيراً يلفه بسترته ، وبجانبه امرأة ، وكانت الساعة الثانية عشر ليلاً ، فقلت : أوصلهم لدارهم ، وإذا بالطفل حرارته مرتفعة جداً ، واحدة وأربعون درجة وهذان أبواه أتيا من لبنان أثناء أحداث لبنان ، سكنا في بيت في دمر ولا يعرفان أحداً في الشام ، قال : أركبتهم بالسيارة وأخذتهم إلى طبيب مناوب عالج الصغير واشترينا الدواء من صيدلية مناوبة ، ذهبنا إلى مشفى لأعطي الطفل إبرة ، وانتهينا الساعة الرابعة صباحاً ، بقيت أسبوعين أو ثلاثة مغموراً بسعادة لا تُوصف .

يقول بعضهم : والله نحنُ نُريد السعادة ، السعادة بين يديك ، إذا أردت أن تَسعَد فأسعد الآخرين ، كل واحد منا يذوق لذة الأخذ ، هو يقبض المال فيفرح ويمرح ، ولكن ما أحد ذاق لذة العطاء ، العطاء له لذة أكبر ، العطاء تمسح به جراح أسرة ، فمثلاً شخص لهفان تحل له مشكلته ، بلا مأوى أمّنت له بيت ، بلا زوجة ساعدته على الزواج ،

أو رجل مريض دللتَهُ على طبيب مُخلص لا يَغُشُّهُ ، لا يبتزّ أمواله ، له قضية بالقضاء دللتَهُ على محامٍ صادق .

لا تعرف طعم السعادة حقاً إلا إذا خدمت الناس .

مرةً سمعت متهجداً ، يقول : يا رب لا يحلو الليل إلا بمناجاتك ، ولا يحلو النهار إلا بخدمة عبادك .

على المسلم أن يزور مريضاً أو أن يقدم معونةً : « **ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجةٍ أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهراً** [رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج بسند حسن عن ابن عمر] » . هذا الحديث الشريف أصل في الدين .

الشُّكر الثاني : أيها الإخوة أن تُثني على الله : يا رب أنت اللطيف ، أنت الرحيم ، أنت القوي ، أنت الغني ، أنت الرؤوف ، يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، يا غفار الذنوب ، يا ستار العيوب ، أنت الذي تعطي ولا تسأل ، تحلُم ولا تعجل .

لسانك ينطلق : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، يعني إذا أثنيت على الله ، هذا شُكر أيضاً .

يا ربِّ لقد خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعفُ عني ، اللهم إني أسألك موجبات رحمتك .

أن ينطلق لسانك بذكر الله بالثناء عليه ، يا رحمن الدنيا والآخرة ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض وصلح عليه أمر

الدنيا والآخرة ، أعوذ بك من أن تنزل بي سخطك أو أن تحل علي غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك هي أوسع لي .

إذا رأيت مؤمناً من غير رواد جامعك ومن غير جماعتك ، ورأيته مستقيماً محباً لله إن لم تحبه فلست مؤمناً ، لِمَ تُعمّق انتماءك فقط لجماعتك ؟ إذن أنت طائفي ، أنت عُنصري محدود الأفق ، بل عليك أن تنطلق إلى الناس جميعاً . . فالدعوة عامة . .

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قَالَ : وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا قَالَ : « **قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلا هَالِكٌ** . . . » .

الإسلام للناس جميعاً ، يجب أن تعمل تحت ضوء الشمس ، لا مُعميات في الإسلام ، كل شيء واضح ، خالق الكون هذا كتابه وهذا منهجه وهذه سُنّة نبيه ﷺ ، فأنا أُلح ألا يقتصر العمل الطيب على من يلوذ بك أو ممن تعرف من العباد ، لا . . بل خيرك للناس كافة ، ولا تدري في أية لحظة يُشرق في نفس هذا الإنسان الذي أسديت إليه الجميل ؛ فهذا هو الإيمان لعلَّ الله عز وجل يهدي بك وأنت لا تدري .

فمثلاً كان لأبي حنيفة النعمان جارٌ مغنٍّ تارك صلاة شارب خمر لا ينيمه الليل وطول الليل يغني :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ذات ليلة لم يسمع أبو حنيفة غناءه في البيت المجاور ، يعني أن المغني لديه عارض عرض له ، تفقده فوجده في السجن لقضية ما ، فذهب إلى مدير السجن وشفع له ، مدير السجن لم يُصدّق ، وجد الإمام الأعظم عنده في المكتب ، فأطلق إكراماً له كل من أُلقي القبض عليهم في تلك الليلة ، وهو في طريقه قال له : يا فتى هل أضعناك . . نسيناك ؟! فكان هذا المعروف سبباً لتوبته .

اجتهادك وبطولتك ليس في إسداء خدمةٍ إلى مؤمن ، المؤمن سوي مثلك ، تجلس إلى مؤمن فتقول : لقد أقنعته ، وهو مقتنع أصلاً قبل أن تؤثر فيه ، إذا كنت بطلاً تُقنع إنساناً تارك صلاة ، تُقنع إنساناً عنده شكوك بالله عز وجل ، هُنا البطولة ، أن تُدخل على المجتمع المؤمن عنصراً جديداً ، تجلس إلى عدو للدين عنده شبهات ، ولا يعبأ بالعلماء ، ولا يعبأ بالدين تقنعه ، تحلم عليه ، وتعطيه الأدلة القطعية ، ويرى منك خُلُقاً حسناً ، لمدة شهر أو شهرين أو ثلاثة فيشرح الله صدره ، ومن بعد يصلي ثم يتوب ، ويأتي إلى المسجد ، ويعتاد المساجد وحلقات العلم ، فهذه البطولة حقاً وليست البطولة أن تُفسد الناس على شيوخها ، ولا الشيوخ على تلاميذها لا ، فأنت مهمتك أن تُحدث عنصراً جديداً في المؤمنين ، البطولة على قدر المشقة وبحجم العمل الإيجابي النافع .

مرة ذكرت كلمة قالها رجل يدعو إلى الله عز وجل ، قال لتلميذه : يا بني ، السليم لا يحتاجُ إليك ، يحتاج إليك السقيم السيىء ، فالفهيم والذكي والمتفوق والورع والتقي والنقي ، إذا حدثته عن الله فأبكيته فماذا فعلت ؟ عنده مشاعر ولديه عواطف صادقة فلما

ذكّرته تأثّر ، أما إذا كنت تستطيع أن تجلس مع البعيدين والمنكرين والمتشككين تمنحهم من علمك وأدلتك وحجتك ، وتزيل عنهم كل الشبهات وتأخذ بيدهم درجة درجة ، مرحلة مرحلة ، تأخذ بيدهم ، تعينهم ، تكرمهم ، حتى يحبوك ، وترقى بالعليل والسقيم إلى السعادة فهذا العمل طيب مشكور .

وبعد ، فإن الشُّكر يكون بالثناء ، فالربّ سبحانه وتعالى إذا أثنى على عبده فقد شكره ، أنت تثني على الله في مجالسك والناس يحبونك لأحاديثك هذه ويمدحونك في غيبتك ، هذا شُكر الله لك ، إذا أحسنت للعباد أحسن الله إليك :

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

والإمام الغزالي له كلمة ، قال : « **إذا كان الذي أخذ فأثنى شكوراً فالذي أعطى وأثنى أولى أن يكون شكوراً** » .

فالذي قبض القبضة قال شكراً ، والذي أعطاك ، وبعد أن أعطاك وسمع ثناءك أثنى عليك ، أيهما أحق أن يكون شكوراً أكثر ، فالله الذي أعطى سبحانه وتعالى هو الشكور ، فالذي أخذ فأثنى على الله يُعد شكوراً ، أما الذي أعطى وأثنى مرتين هذا هو الشكور ، مرةً أكرمه بعطاءٍ مادي ، ومرةً أثنى عليه عند الخلق .

لذلك : روى الشيخان وأحمد حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال يقول الله عز وجل : « **إن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم** » .

أنت تكلّمت بين خمسة طلاب أو ستة ، والله عز وجل جعل ذكرك

بين ثلاثمئة رجل ، فلما ذكرت قام أحدهم وتكلّمَ عليك كلاماً تعطّرَ المجلس بِذكرك ، الله شكور ، أنت أثنيت على الله أمام خمسة أشخاص من عامة الناس ، والله عز وجل أثنى عليك أمام عِلْيَةِ القوم ، « **لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي ، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى** » [الطبراني بسند حسن من حديث معاذ بن أنس] .

هذا هو الشكور ، إن عملت يعاملك بالإحسان فهو شكور ، وإن تحدثت عن الله عز وجل يعاملك بالعرفان فهو شكور .

الشكر يتوجه لمن ؟ إما إلى الخالق وإما إلى المخلوق ، ومن ثم فشكر الخالق مستحيل : أي إنك يستحيل عليك أن توفيه حقه بشكرك له ، لماذا ؟ قالوا : لأن شُكر النعمة مشروط بمعرفة هذه النعمة ، وما دامت معرفة النعمة مستحيلة فالشُّكر مستحيل ، والدليل :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٨] .

انظر إلى نعم الله عليك ، فإذا أردت أن تجري إحصاء : فالطحال والكلية والكظر ومركز التوازن ، ومركز توازن السوائل ، مراكز عديدة في جسمك ، وبإيجاز : إنك إن تعد نعمة الله عليك لا تحصيها .

ما دام يستحيل عليك أن تعرف نعمة الله كما هي ؛ إذاً يستحيل أن تشكر الله حق الشُّكر ، لهذا ماذا قال النبي ﷺ : « **لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك** »[1] .

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان =

مستحيل أنْ توفي الله حقه من الشكر هذه واحدة .

الثانية : الشُّكر نعمة من الله ، فأنت تشكُر على نعمة والشُّكر نفسه نعمة ، فأنت في نِعم ، يا رب كيف أشكرك وشُكرك لا يتم إلا بنعمة منك جديدة ، إذاً أنت مفتقر إلى أن تكون شاكراً لله عز وجل .

هناك نقطة دقيقة وهامة : رؤية النعمة نعمة ، الله عز وجل يعطيك مع استغنائه عنك ، لكنك تشكُرُهُ مع افتقارك إليه ، وشتان بين هذا وذاك ، وهناك أدلة كثيرة على أنه يستحيل أن تشكُر الله كما ينبغي ، لكن أخذ القليل خير من ترك الكثير ، وما دام مستحيلاً أن تشكُر الله كما ينبغي فلذلك قل : يا رب! لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، يا رب! ليس في قدرتي أن أشكرك كما ينبغي لكن أشكرك بقدر ما أعلم وبقدر ما أستطيع .

آخر ما ينبغي شد أفكار القارىء إليه بالموضوع يتلخص بالسؤال التالي والإجابة عنه : أسدى مخلوق إليك نعمة فلمن الشُّكر ؟ الجواب : لله فقط ، فهذا المخلوق الذي أكرمك مِن خلقه ، أعطاه الله عز وجل قوةً وحياةً ، والله عز وجل هو الذي سمح له أن يخدمك ، كما ألهمه أن يخدمك ، بماذا خدمك ؟ أعطاك مثلاً طعاماً ، من خلق الطعام ؟ الله عز وجل ، أعطاك مالاً ، وهذا المال قيمته بقيمة مشترياته ، من خلق النِّعم ؟ الله عز وجل ، أعطاك طعاماً كيف تأكل الطعام ؟ تحتاج إلى أجهزة ؟ إذاً الذي خلق والمُنعِم هو الله ، والذي أَلهَمَهُ هو الله ، والذي مَكَّنَهُ هو الله ، والذي خَلَقَ النِّعمة التي هي

= وهو يقول : اللهم! إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لاأحصي . . الحديث .

موضوع عطائك هو الله ، والذي مكّنَكَ من أن تستفيد من هذه النعمة هو الله ، إذاً الشُّكر لله عز وجل ، ولكن هذا المخلوق مادام مُخيّراً ، إذاً يستحق أن تشكُرَهُ بعد الله عز وجل ، فالشُكر لا تقل : لله وفلان ، بل قل : لله ثم لفلان .

هذه (ثم) ضرورية جداً ، الحمد لله على هذه النعمة التي أنعم الله بها علي ثم الشكر لفلان الذي جاءتني عن طريقه ، لهذا قال عليه الصلاة والسلام :

« مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ » .

لو افترضنا أنه جاءك معروف من جماد ، رجل ماشٍ في طريق مر بشرفة من إسمنت ومشى تحتها فوقع حجر من آخر البناية عليه ، هذه الشرفة تلقت الحجر ، لولا هذه الشرفة لهلك ، فهل يشكر الشرفة ، هذه شرفة جامدة لا تعقل ، إذا جاءك خير من جماد أو من حيوان أو من مخلوق غير مكلف فالشُّكر لله فقط ، أما إذا جاءك خير من مخلوق مكلّف مخيّر ، قلت : ما دخله إن الله سخّرَهُ ليّ ، فهذا منتهى الوقاحة ومنتهى الجحود ، إذا جاءك الخير من إنسان مكلّف يجب أن تشكُرَ الله لأنه خَلَقَهُ ، وألهَمَهُ ، وسَمَحَ لَهُ ، ومَكَّنُه ، وخَلَقَ الله النِّعمة التي بين يديه وجعلك تنتفع بها ، كله لله ، لكن ما دام مخيّراً وقدّمَ لك هذه النِّعمة باختياره إذاً نزجي له الشُّكر ثانياً بعد الله عز وجل .

وبعد ، وقفة أخيرة في الموضوع وهي لطيفة ؛ موازنة بين نعمة أسداها الله إليك ونعمة أسداها زيد إليك ، قالوا : أولاً : إن إنعام الأمير مكدر من وجوه ، أحدها : أنك ربما احتجت إلى شيء ولا يعطيك إيّاه لأنه محتاج إليه ، مرة كنت في الحج احتجتُ إلى ليتر

ماء ، فسألت حاجاً قال : والله يلزمني الماء ، فمعه حق لأن الماء يلزمه ، فأنت قد تطلب من إنسان شيئاً هو بحاجة إليه ، وإن كنت بالمطار مثلاً وأردت أن تكتب بطاقة وليس معك قلم ، فتقول لواحد : إذا سمحت أريد قلمك ، يقول لك : أحتاجُ إليه والله ، فأنت إذا طلبت من إنسان حاجة قد يكون هو محتاج إليها فلا يعطيك إياها ، أما إذا سألت الله عز وجل ، فإنه يلبيك ولا يمنعك ، وهذا أول فرق .

الأهم من ذلك أنه يمكن لفلان أن يعطيك ، ولكن فلاناً ليسَ حاضراً الآن ، فأنت مسافر وهو بالشام وعطاؤه مستحيل لبعد المسافة بينكما أما الله فهو معك دائماً ، هذه النقطة الثانية ، النقطة الأولى قد يكون الشخص قادراً على العطاء ، لكن هذا الشيء يحتاج إليه قبلك ، النقطة الثانية : أنك قد لا تستطيع أن تصل إلى هذا المنعم لسبب ما .

النقطة الثالثة ؛ أنك إذا قصّرتَ مع إنسان فإنه يقطع عنك فوراً ، لكن كما قال نبينا ﷺ : « **ليس أحد أصبر على أذىً سمعه من الله تعالى ، إنهم ليدعون له ولداً ويجعلون له أنداداً ، وهو مع ذلك يرزقهم** » .

والأمير إذا أعطى يقول لك : اللحم الذي على أكتافك من خيري . صاحب معمل عنده أجير ، يمنُّ عليه ، وإذا أعارَهُ بزة ، فإنه يمن عليه بها أمام الناس ، ويفَضَحُهُ أمام الناس ، كأن يقول له : حافظ عليها ولا تفسدها .

فأول نقطة أن الأمير قد لا يعطي لأنه بحاجة لهذا الشيء ، وقد لا تستطيع أن تصل إليه ، وإذا قصّرتَ في خدمته حَرَمَكَ هذا العطاء ، وقد يمنُّ عليك .

وفي ختام معالجتنا للموضوع أقول : الشكور الذي إذا نَوَّل أجزل ، وإذا أطيع بالقليل قبل وهو الذي يقبل القليل ويعطي الجزيل ، وهو الذي يقبل اليسير من الطاعات ويعطي الكثير من الدرجات ، وقيل : حقيقة الشُّكر الغَيبة عن شهود النعمة بشهود المنعم .

الدول البعيدة العلمانية ماذا ترى بعينيها ؟ النعمة فقط ، وكل شيء ثمين عندها وله ثمن لكن المؤمن ماذا يرى ؟ المُنعِم ، وملخّص الدرس كله ، أنك إذا استطعت أن تتجاوز النعمة إلى المُنعم فأنت شكور .

يسمع أحدنا النشرة الجوية أن هناك منخفضاً ، وأمطاراً ، وثلاثون ميلمتر من الأمطار نزل ، فهو في النشرة مع النعمة وفي النعمة ، أما المؤمن فيقول : يا رب لك الحمد ، هو مع المنعم .

* * *